المحاضرة ٧

جاستون باري

1 ـ يقول جاستون": إنَّ الأساطير والخُرافات الشَّعبيَّة قد نحتْ منحى مُقارَناً قبل أن يخرج الأدب المقارَن إلى الوجود

2ـ يقول أنَّ الأدب ينشأ فطريَّاً قوميَّاً ، ثُمَّ يتعقَّد وينحو اعتماداً على ما يردُ إليه من موارد خارجيَّة على نطاق الأدب القومي ، وما يهمُّنا هنا مسألة تناولها في بحوثه ومُحاضراته لها صلة وثيقة بأدبنا وبالآداب الشَّرقيَّة ، من حيث تأثُّرها في آداب الغرب ، تلك هي الأُقصوصة الشَّعبيَّة في العصور الوسطى الَّتي يُطلق عليها اسم "الفابليو "، وهذا النَّوع من الأُقصوصات" الفابليو "جنس خاصّ راجَ في فرنسا في حوالي منتصف القرن الثَّاني عشر حتَّى أوائل القرن الرَّابع عشر الميلادي ؛ وهو قصَّة شعريَّة تؤلَّف لتُحكى . والجانب الغالب هو جانب المسلاة ، ولكنَّها قد تكون مع ذلك لها طابع خلقي ، أو اجتماعي ، ثُمَّ أنَّها تنحو منحى واقعيَّاً مبنيَّاً ـ عادة ـ على شئون الحياة اليوميَّة ، أو العيش الغالبة ، والمشاكل الصَّغيرة الَّتي تعرض الأفراد الوسطى في تُجَّار وقُسس ونُبلاء صغار . ويُعنى الشُّعراء فيها بإبراز العيوب الَّتي تُثير السُّخريَّة ؛ لأنَّها أسهل في إرضاء العامَّة ، وقد كان هؤلاء العامَّة هم جمهور الشُّعراء في هذا الجنس الأدبي . والهِجاء الاجتماعي في هذه الأُقصوصات الصَّغيرة ليس عميقاً ، ولا ثوريَّاً ، بل غايته الفكاهة ، في روح مرحة لا تبغي سوى دقَّة الملاحظة ، دون خُبث أو تعمُّق ، وقلَّما تلجأ هذه الأُقصوصات إلى جانب المأساة الجدِّيَّة ، أو النَّصائح التَّربويَّة . إذا كان موضوعها النِّساء ، فإنَّهنَّ يُظهرن فيها خادعات

ماكرات يلعبن بألباب العُقلاء ، ومنزلة المرأة في هذا الجنس الأدبي دون مكانتها في أدب الفروسيَّة المعاصر لذلك الأدب . وهذا اتّجاه شعبي قد يكون مُتأثِّراً بالمسيحيَّة أو بما اقتبسه الشُّعراء من الأُقصوصات الفارسيَّة الأصل .

وفي الحقِّ يتَّضح هذا التَّأثير الشَّرقي في بعض هذه الأُقصوصات بحيث لا يدع مجالاً للشَّكِّ فيه . ونضرب هنا مثلاً أُقصوصة فرنسيَّة من هذا الجنس الأدبي عنوانها": اللُّص الَّذي اعتنق ضوء القمر "، ومُلخَّصها أنَّ سارقاً اعتلى بيت ثريٍّ من الأثرياء في ليلة مُقمرة ، فشعر به صاحب المنزل ، فطلب من امرأته بصوت خفيض أن تسأله في إلحاحٍ كيف جمع ثروته ، ويُجيبها ـ بعد تمنُّعٍ ـ بأنَّه جمع ثروته من السَّرقة ، وأنَّه كان يُرقَّى برُقيَّةٍ سحريَّة ، فيحمله ضوء القمر ليخرج سالماً ، وهذه الرُّقية هي كلمة" سول saul "ينطقها سبع مرَّات ، فينخدع بذلك القول اللُّص وينطق بها ، ثُمَّ يُسلِّم نفسه للضَّوء كي يقع فتنكسر ساقه اليُمنى وذراعه ويدركه صاحب المنزل ، فيقول له اللُّص": لسوء طالعي قد سمعتُ نصحَك ، وقد حملني سحرُك حملاً طيّباً أشرفتُ معه على الموت ، وهاأنذا المصاب المحتضر "، ونجد هذه الأُقصوصة في كليلة ودمنة لابن المقفَّع في باب" برزويه . "فيها كلمة الرُّقية" شولم " سبع مرَّات ، ولا يدع التَّوافق بين الأدبين ـ في موضوع الأُقصوصة وتفصيلها ـ مجالاً للشَّكِّ في تأثُّر الأدب الفرنسي بها وأُقصوصة أُخرى شرقيَّة أثَّرت قطعاً في ذلك من الفارسيَّة إلى الأدب العربي ، وموجزها على حسب ما يقصُّ صاحب كتاب)المحاسن والمساوئ": (أنَّ الموبدان أو رئيس الكهنة الإيراني كان كُلَّما دخل على "خسرو أبرويز "حيَّاه ثُمَّ قال له": أُعطيتَ الخيرُ ، وجُنِّبتَ طاعةُ النِّساء "، فغاظَ ذلك" شيرين "محظيَّة كسرى" . فأرادت أن تكيد له ، فأهدت إليه جاريَّة جميلة

يُقال لها" مشكدانة "وأمرتها أن تغري الشَّيخ بمفاتنها ، على ألَّا تستجيب إليه إذا دعاها إلَّا إذا أسرجته وألجمته وركبته ، وتُحدِّد وقتاً لذلك تُخبر به سيِّدتها ، كي تفاجئه على هذه الحال مع كسرى ، وفعلت الجاريَّة ما أمرتها به سيِّدتها ، وطلع "خسرو "و" شيرين "على الجاريَّة وقد ألجمت الموبدان وأسرجته وركبته ، وهي تقول له": خر خر "يعني) حمار حمار (، ورفع الموبدان رأسه فرأى" خسرو "، فقال له ":هو ما كنتُ أقول لك في اجتناب طاعة النِّساء "، يُريد أنَّه حذَّر الملك بالقول ، ثُمَّ فعل ذلك ليضرب له المثل عملاً ، وهذا هو موضوع" أُقصوصة أرسطو "في الجنس الأدبي الَّذي نحن بصدده ، ألَّفها فيه الشَّاعر الفرنسي" هنري داندلي "في النِّصف الأوَّل من القرن الثَّالث عشر ، وقد استبدل فيها" الاسكندر "بِـ"خسرو "، كما استبدل" أرسطو "بِـ"الموبدان. "